

دَوْلَةُ التَّرْبِيَةِ وَالْتَّعْلِيمِ فِي تَنْمِيَةِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

الدَّكْتُورُ عَلَى التَّسْوِي

استاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – تونس

وإذا نحن قصدنا من التنمية مفهوم الفزاررة اللغوية اقترنا بشيء من الاندهاش بأن اللغة العربية من هذه الوجهة قد جاوز ثراوها الحد ، اذ عدد الانماط العربية يفوق الستة ملايين لا يستعمل منها الا قرابة الستة آلاف مفردة والباقي مهملا ، مع العلم بأن اللغة العربية تفتقر ثروتها هذه من أصولها الثلاثية والرباعية والخمسية وتضم إليها نظاماً متكاملاً لا يختل في الاشتغال ونظمها متظورة في النحت بحيث تصارع غيرها من اللغات الكبرى .

وإذا نحن فحصنا مفهوم التنمية للغة العربية على صعيد الانتاج الادبي ، وجدنا ان اللغة العربية قد اصدرت في الماضي البعيد والماضي القريب أباً قيماً وتتصدر اليوم أديباً رائداً وكل الأدباء دليل ان احتجنا إلى دليل على ان اللغة العربية قادرة مرة أخرى على ان تقوم بوظيفتها كأدلة لتنمية الفكر البشري .

وإذا نحن حاولنا حد مفهوم التنمية للغة العربية على الصعيد الحضاري شهد التاريخ بأنها قامت بدور ايجابي إلى بعد حدود الإيجابية في إصدار ثقافة عالمية باتم معنى الكلمة وانها ثبتت كوحدة لغوية الى يوم الناس فرسخت كلغة حضارة نطاها وكتابه قزابة

تساؤلات عديدة تبادرت إلى ذهني وأنا أحاول معالجة هذا الموضوع ، تساؤلات ادرتها حول مفهوم التنمية للغة العربية ثم على اي صعيد تكون هذه التنمية ؟

فنحن ماذا نعني بطرحنا هذه القضية على بساط البحث ؟ افمعنى التنمية من حيث الانتشار ؟ .. او نحن نعني التنمية من حيث الوفرة والغزاراة ؟ .. او انتا لا تعني الفزاررة اللغوية وانما نعني التنمية للغة العربية من حيث ثراء الانتاج الادبي والثقافي ؟ او انتا لا نعني شيئاً من ذلك كله وانما نعني امراً آخر .. ؟

فإذاً ما نحن عيننا بالتنمية والانتشار تذكرنا ما هو مقرر عند الخاص والعام من ان اللغة العربية منتشرة وكثرة الناطقين بها على وجه البسيطة دليل دامغ ليس بعده من دليل على أنها اللسان القومي لما يقارب المائتي مليون من البشر موطنهم يمتد من المحيط إلى الخليج ثم اللغة العربية هي اللسان المقدس لما يزيد على الخمسين مليون من المسلمين منتشرين في أرض الله هي أدلة يقيمون بها صلوائهم وشعائرهم الدينية ؟

ستة عشر قرنا منها قرنا قبل الاسلام وذلك رغم مختلف الانقسامات المتکاثرة وتقلبات ضروب الاحداث المتوعنة .

وإذا نحن بحثنا في مفهوم تنمية اللغة العربية على الصعيد الذاتي فأنفسنا تبرىء تلقائياً لتجيب بأن اللغة العربية هي لغة شعبنا هي اللغة الأم هي مقوم من ابرز مقوماتنا وركن من أثبت اركان شخصيتنا القومية وعنصر من أمننا عناصر ذاتيتنا. إذ هي تنقلينا تراث آبائنا وتتلقي عننا التراث الذي ستنقله إلى الأجيال المقبلة .

غير أن ما نبغى من مفهوم لتنمية اللغة العربية هو المفهوم الحركي الدينامي للتنمية هو المفهوم الذي يعني الأجيال المقبلة وبذلك نفهم أن ما نصصنا عليه في هذا العرض الخاطف من تقريرات واقرارات ليس هو في حقيقة الامر والواقع سوى استحضار لماضي مجيد ولحاضر تلمسه ونحياه والحال أن هذا الحاضر يوجب بكل تأكيد أن تطرح القضية على أساس البحث عن كيفية تنمية اللغة العربية تنمية تؤهلها للمساهمة بجد في تهيئه عالم الغد عن طريقها هي لا عن طريق ضرة لها إذ قدما كان يؤلف باللغة العربية في الطب والفلك والهندسة والرياضيات .

فما يمنع اللغة العربية من أن تكون اليوم وغدا لغة العلوم العصرية والفنون الصناعية ؟ إن اللغات كائنات تحيا كل كائن بخضوعها لنواوميس الهيكلية البنوية للحياة واللغة الحية هي التي تصهر بطريقة متواصلة مستمرة عناصر جديدة تتقبلها وتلغي ما لم يبق لها صالحا من عناصر . فاللغة تجدد كل كائن حي ولا تحيا اللغات إلا في أنواه الناطقين بها واللغة العربية لا تنسد عن القاعدة الهيكلية الطبيعية فهي على شاكلة القوم الذين يتكلمونها وهم ان ارادوا لها الحياة مطالبون بخضاعها لاغراضهم المختلفة و حاجاتهم التجددية .

ليس احد يجهل أن اللغات لا تحيا بتقارير اساتذة الجامعات ولا بالاسانيد ولا بالحيثيات والاحكام وإنما تحيا اللغات بالاستعمال والمارسة وابن يكون استعمال اللغة العربية ان هي لم تعلم وتمارس الاسرة وفي المدرسة وفي المجتمع ؟

ان هذا الامر يفرض علينا نبذ الانطوانية حتى لا يصبح هذا الثراء الذي تتمتع به اللغة العربية على مختلف الاصعدة والذي من واجبنا الحفاظ عليه عبئا ثقيلا قد يعرقل أو يمنع مسيرة اللغة العربية في النمو الذي معناه مواكبة الناطقين بها ما يجد في الحياة.

فالتنمية المقصودة اذن هي التنمية على صعيد العلوم الحديثة وهي تنمية تكون لها جذور في الانفاظ وفي الحضارة معا . ومعنى ذلك ان العلوم الحديثة التي غزت وتغزو جميع ميادين الحياة هي علوم لا تزال اللغة العربية على عتبة ابوابها بالرغم مما انجز وينجز فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية وخاصة الآلسنيات وعلوم الاجتماع وعلوم التحليل النفسي وهي ميادين تأمل للغة العربية فيها ثراء لغوی بفضل مختلف الوسائل الاعلامية المعاصرة .

ان الرهان الحقيقي الذي على اللغة العربية ان تكتبها انما يتمثل في قيامنا او عدمه نحن رجال الفكر والعلم الناطقين بالضاد بمسؤوليتنا امام الاجيال الصاعدة واللاحقة بما تلك الاجيال التي نريد لها لغة حية مرننة طيعة لغة عربية صالحة لاداء وظيفتها متاز بما متاز به اللغات العصرية من سهولة التركيب ودقّة التعبير ووضوح التبليغ لغة قادرة على السير في صعيد الحضارة وركب التقدم لغة تحقق التفتح لمتضيّفات الروح العلمي الجديد ..

ولا يفوتنا في هذا المجال تأكيد الاعتراف بكل شجاعة وبكل جدية وبكل موضوعية بأن اسهام الاجيال الصاعدة في ممارسة شؤون حياة المستقبل يوجب علينا لاستكمال مقوماتنا وتدارك تأخرنا الناتج عن قررون الانحطاط والهيمنة الاجنبية ان ننهي مباشرة في الوقت الراهن من ينابيع الثقافات والحضارات الأخرى اذ القضية المطروحة في هذا اللقاء هي في نظرى ليست قضية اللغة العربية بوصفها فقط كادة لنقل المعرفة وإنما هي قضية الادمغة القادرة على استساغة المعرفة المعاصرة بمفهومها الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي .

ان المعرفة التقنية والتكنولوجية التي نريد بل يحتم علينا ضمان المصير تحقيقها لدى الاجيال الصاعدة هي معرفة تتطلب لقمة وقوتها اكملها ارضية تنمية تكنولوجية يتوقف وجودها على ايجاد الخبراء وهؤلاء

انما تتولى المدرسة خلتهم فالتعليم هو الاداة المحتقة
لهذه الفایة .

وفي هذا الصدد لا ننسى المجهود الجبار الذي
بذلته وتبذلته الدولة التونسية منذ الاستقلال في
سبيل نشر التعليم وديمقراطيته على أساس نظام
تعليمي يمكن التونسي من بلوغ كمال انسانيته وتحقيق
محضه . فالتعليم وخاصة الجامعي منه يسمى لتغريب
المثقفين الذي يستطيعون الاطلاع على الثقافة العالمية
وعلى نحو صالح منها لجتمعنا وعلى المشاركة في
ركب الحضارة .

والجدير باللحظة في قضية تنمية اللغة العربية
هو ان التغريب لاداة العلم لا يعني حذف اللغات
الاجنبية . فالجامعات بالبلاد العربية وبضمها
جامعتنا التونسية صرحت بأن اللغة العربية لا تصلح
الن للعلوم الحديثة من طب وهندسة ورياضيات
وطبيعية ونبات وحيوان وغيرها لقيام عدد من العوائق
بحول دون استخدامها فيها وحانقت كلها ما عدا
سورية والملكة العربية السعودية على تدريس العلوم
الصحيحة بالانجليزية كما هو الشأن بمصر والموردن
والعراق (*) وبالفرنسية في لبنان والجزائر والمغرب
الاقصى وتونس .

ان البلاد التونسية في هذا المجال لم تقلب لغة
التعليم بين عشية وضحاها من اللغة الفرنسية الى
اللغة العربية وانما خططت ذلك في تدرج ولا يفوتنى
في السياق ان اذكر بما جاء في المحاضرة التي القاهَا
نخامة الرئيس الحبيب بورقيبة يوم 11 ماي من سنة
1968 بجامعة مونريال بكندا حين قال :

اما على الصعيد اللغوى فاننا لم نكن نشعر كما
لا نشعر اليوم بأى مركب . ولقد استيقينا اختيارنا
للغة الفرنسية كما كان الحال في عهد الاستعمار . ولم
يكن شيء يحملنا على العدول عن اعتماد لغتين معاً
بعد الاستقلال . ولم يكن بوسعنا أن نسمح لأنفسنا
بأنفسنا تذرير لطاقتنا ، ولا بأية اضاعة لوقاتنا ، ولم
تكن في الواقع لنتمسك بالاوهام فيما يتعلق بهذا
الموضوع . ان ادراكنا كان دقيقا بضرورة سنوك ممالك
الجد والواقعية الذي تقتضيه تلك المغامرة المتمثلة

في ممارسة الحرية وتلك المغامرة الاخرى المائلة في
اقامة اسس الدولة وتنظيم اقتصادها . واذا كان هذا
حالنا وهذا اتجاهنا فكيف تحديتنا انفسنا بالرجوع الى
الوراء لنسأل معيينا من منابع ثقافة منفردة ، او
بالاستسلام الى اوهام عاطفية تكون عامل من عوامل
التحقير .

على اتنا حين نتحدث عن تونس فاننا لا نوف
الكلام حقه عند ما ن فهو بازدواج لفتها . والحقيقة
تقتضينا ان نقول ان لها ثقافة مزدوجة . فتونس لا
تتذكر لشيء من ماضيها الذى تعبّر عنه اللغة العربية .
وهي تعلم ان الفضل في مشاركتها الكاملة في ثقافة
العالم المعاصر وفي حياته ، يعود الى حذفها اللغة
الفرنسية . ولقد اثبتت التجربة التونسية ان اللغة
تساعد على اقرار الهيكل واثباتها . وهذا ما خبرته
تونس ، واؤكد لكم ان هذه التجربة لم تأت عفوا وانها
صادرة عن ادراك دقيق .

ان النظر في التطبيقات الفعلية لتنمية اللغة
العربية على صعيد التربية والتعليم يجعلنا نكتشف
عوائق من بينها ان التعليم ان كان يمكنه ان يحول
بصفة ملموسة تطوير اللغة العربية في الفاظها وهيكلها
البنيوية والفكريّة والوجودانية مما فهو لا يمكنه ذلك
بدون تحقيق تنمية للثقافة نفسها الامر الذي يجرّ حتماً
الى الاعتراف بأن الاختيار القومي لفائدة تعلم اللغات
الاجنبية والفرنسية منها خاصة هو رغم مشاكله
المعروف في التطبيق اختيار لتنمية شاملة باتم معنى
الشمول اول المستفيدن منها اللغة العربية .

ولسائل ان يسأل وain هي العوائق اذن ؟ القضية
ليست بسيطة وانى ارتکر فيما اقول على نتائج اعمال
المؤتمر العام الذى عقده اتحاد الجامعات العربية في
فيفرى من سنة 1973 وعلى الاستفتاء الذى اضطلع
به المكتب الدائم لتنسيق التغريب في العالم العربي
بالرباط سنة 1966 . ذلك ان الاراء جميعها تتفق على
ان اللغة العربية هي الاداة الطبيعية للتعليم على
اختلاف المستويات والعلوم لكن ينقصها الصفات التي
يطلب بها اصحاب هذه العلوم ومن اؤكد تلك الصفات
هي تلك التي تمثل في وجود اطار تدريسي للمناهج
التعليمية اذ التعليم عملية متصلة مترابطة الحلقات

(*) كان الطبع فقط يدرس بالانجليزية في العراق ثم شمله التغريب - (اللسان العربي) .

لا ينفصل فيها التعليم الجامعى عن التعليم الثانوى والابتدائى وذلك يقتضى أن تكمل مناهج كل مرحلة مناهج المرحلة التى تسبقها وان لم يتحقق ذلك ضاعت الجهدود سدى .

ثم يخصوص تعليم اللغة العربية نفسها أفصحى أن رجال التعليم لهم خبرة بالعلوم الحديثة او على الأقل بالبعض منها وهو ما تعارفنا على تسميته بالتكوين الأساسى يمكنهم من المساعدة على تعصير اللغة العربية ؟

ثم على صعيد مرحلة التعليم الابتدائى الذى يُعد اليوم في تونس زهاء التسعينات الف طفل افى امكان المعلم غير المطلع ولو على العناصر الاولى الضرورية لتلك العلوم الحديثة ان يلقن تلاميذه شيئا آخر غير تلك اللغة المتجمدة استغفر الله اللغة المتقدمة التي كلنا نعرف بأن البون بينها وبين المفاهيم الجديدة موجود . نحن نخشى ان يكون ذلك تقللا على ذاكرة جيل صاعد مصره العيش في حياة معاصرة .

فكم من معلم عجز في كثير من الاحيان على اجتياز العقبات التي تعرّضه أثناء التدريس . لقد قال رئيس الدولة في الخطاب الذى القاه بمناسبة اشراقه على مهرجان نهاية السنة الدراسية في 25 جوان سنة 1958 : أريد أن الالاحظ أن التعليم بالمدارس الثانوية سيكون متوجها إلى التعرّيف واستعمال اللغة العربية حيث تكون لغة التدريس لجميع المواد ..

نعم هذا الرهان نحن بصدد كسبه ولكن ؟ . يجب الاعتراف بأن العربية كلفة واداة تشکو على صعيد التعليم الابتدائى أمورا منها تلة الادوات ومنها مضامين وأساليب نكاد تكون قاصرة رغم محاولات التجديد المحثشة ومنها فقدان روح المعاصرة في أكثر من موطن ومنها خاصة عدم سيطرة جانب وانير من الاطار على آلياتها الاولى وهذا كله من شأنه ان لا يساعد على تنمية اللغة العربية لفتنا الام . ان التعليم يجب ان يكون محوره دعائم جوهريه اربع او لا يكون : اللغة العربية ، اللغة الاجنبية ، الرياضيات ، التقنيات .

ومن الواجب ان تكون الثقافة العامة متزايدة التفتح على العالم المعاصر وذلك انما يتحقق باستعمال الطرق البيداغوجية الجديدة التي تعتمد اكثر فأكثر

دراسة الوسائل الذى يكتنف الطفل . وكذلك يحصل بتنمية تعليم هو معرفة العالم بما فى ذلك العلوم الاجتماعية من تاريخ وجغرافية وادب .. الخ كما يشمل مفاهيم جديدة للتربية الاقتصادية والمدنية ودراسة الدواليب الاجتماعية والسياسية . ومن جهة اخرى فان تعليم اللغة العربية انما حقق له النمو والتطوير بالاقل من تركيزه على دراسة النحو والصرف والادب الكلاسيكي وبالاكثر من التركيز على اللغة باعتبارها اداة تعبير وتواصل . وهذا المفهوم للتنمية على صعيد اللغة العربية يفرض علينا تحويل برامجنا فلماذا لا نجرؤ منحول الامور . انى شخصيا اطلعت على برامج التعليم بالبلاد الاسكندينافية في الصائفة الماضية واذكر هنا مقتطفنا من برامج المرحلة العليا للمدرسة الموحدة التي يعادلها عندنا اقسام المرحلة الاولى من التعليم الثانوى ففي هذا البرنامج يوجد التصنيص التالى : يستعمل التلميذ اللغة الام فيما يلى : محادثات - عروض قصيرة - استجابات - تمارين مسرحية - ارجال تمثيليات سهلة - دراسة نصوص مختلفة - التعبير عن المشاعر والاحاسيس - النقد - كيفية استعمال المعاجم - كيفية استعمال دواائر المعرف - كيفية استعمال الدوريات - قراءة الصحف - قراءة نصوص لخيرة الكتاب وخاصة المعاصرين - انشاءات في الوصف والقصة وكتابة الرسائل - كيفية القيام بحوالات - دراسة الانفاظ والتراكيب ومعلومات عن تاريخ اللغة . بهذا المقتطف من البرنامج الرسمي لمدرسة سويدية نرى الفارق الموجود في المستوى نفسه من التعليم بين ما في السويد وبين ما عندنا في تونس فنحن ما زلنا نتبع المناهج الفرنسية في تعليمينا .. بينما فربما نفسها تحور .. ان المهدى اذن من تنمية اللغة على طريق التربية والتعليم ليس تمكين المتعلم من حشد مجموع من المعرف دفعه واحدة وانتهى الامر بل المهدى من التعليم هو ان يتعلم التلميذ كيف يتعلم ومعنى ذلك اكتساب ادوات التربية المستمرة طيلة الحياة واكتساب الوسائل الكهيلية لتحقيق التلاوم مع التحولات كلها الطارئة والتي قد تطأ .

على هذا العرض الخاطف نفهم بوضوح مصدر الموارق في سبيل تنمية اللغة العربية . ان الانسان الذى لا يزال يعيش في اطار اللغة العربية بصيغها التقليدية قد يتحمل هذا الانسان حملا ثقائيا وربما لا شعوريا على ان يفتح عينيه على الماضي بدلا من فتحهما

بالتحول والتجدد في حركة مستمرة كل يوم وليلة .
وسواء اكانت اللغة التي يخاطب بها التونسيون
تتماشى او لا تتماشى مع قواعد الحسن الكليسيكي
وسواء اكانت رائقة بد菊花ة ام لم تكن فتلك اللغة انما
هي الحياة ، الحياة التونسية ، الحياة المبنية
المتجرة ..

و تلك اللغة التي نكتب و تلك اللغة بها نتكلم
 تلك اللغة تكشف عما نريد ان نكون ..

تنمية اللغة العربية تعنى في نظرى تنمية الحياة .
لكن اسمحوا لي بهذه المسؤولين :

اذا كان في الامكان المساهمة في تنمية الحياة امن
اليسير تقنيتها ؟

والجامع اللغوية التي تبذل جبار الجمود في تفني
اللغة العربية ما قولها في الموضوع ؟

على المستقبل .. ومن الممكن ايضا ان يكون محمولا
على الشعور بالنفرة تجاه التجديد اللغوى لانه يشعر
بنقدان شئ وفي الحقيقة والامر الواقع نحن انما نريد
تنمية للغة العربية من شأنها ان تمكن الاجيال الصاعدة
من الانتعاق ومن التفتح ومن الشعور بأنها توكب عالما
جديدا هو عالم من واجب جيل الغد ان لا يقتصر فيه على
الاستهلاك بل عليه ايضا المساهمة في اثرائه .

ان هذا النهاج الذى نتحدث عنه قد بدأ الشروع
في ممارسته لأن المصحف والمجلات منذ ما يزيد عن القرن
ثيم وسائل الاعلام المصرية اليوم من اذاعة وتلفزة هي
دائبة في القيام برسالتها ولا تنفك تقدم للمستهلك من
قراء ومستمعين ونظارة مبادئ العلوم المصرية وبذلك
ساهمت وتساهم في عملية فتح الاذهان على الاكتشاف
العلمي للكون وعلى تنمية ملحة الملاحظة وعلى تعويض
متالية رومانسية بتحليل هادئ للحداث .

ويكفينى لحوصلة مقالتى ان ابرز ان نمو اللغة
العربية يرافق نمو الانسان العربى ضرورة ان محاولة
قصر اللغة على ما هو مكتوب قد يعتبر نسيان ان
التونسيين احياء وهم يخضعون لسنة الحياة القاضية